الثقافة والبناء الاجتماعي والشخصية
في ضوء عوامل التحريك والتركيد السلوكيـة

الدكتور متعب مناف جاسم

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ان كل الجماعات الانسانية في القديم والحديث من التاريخ الانساني تتميز بحد من الفهم المتبادل shared understandings الذى يساعد البشر على ان يعيشوا والذى يعمل كقاعدة لاشباع الضرورات الحياتية لاعضاء الجماعة نفسها .

وهذا يعني ان كل فرد ليس من الضروري ان يشارك في مثل هذه المفاهيم الخاصة بالجماعة والمتضمنة في الثقافة نفسها . ولكن الحرص في المشاركة اوعدمها لاتنفي كون بعض المفاهيم عامة يتوجب على الافراد كلهم المشاركة فيها مع وجود مفاهيم قد لايشارك بها الا البعض من الافراد (١) .

فالحدادة وهي مهنة ضرورية في المجتمعات قديمها وحديثها قد لايعرفها كل افراد الجماعة لانها تكون مقصورة على من يزاولها وهذا بدوره يعلمها لمـن يعملون معه بذلك تكون مقصورة على اعضاء قلائل من افراد الجماعة الا ان الحدادة كحرفة انما تدخل كجانب مهم في حياة الجماعة وبالتالي فهناك ضرورة في التعامل معها يجعلها جزءا لايتجزأ من الثقافة السائدة اذ انها تدخل ضمن المفهومات الثقافيـة . (٢)

مثل هذا الفهم الخاص بأثر الحدادة في المجتمع يمكن ان يمثل ما يسمى بالثقافة الفرعية لانها من عمل جماعة فرعية sub group الا ان مثل هذه الجماعات الفرعية لايمكن ان تنغلق على نفسها لانها جزء من الثقافة العامة وان بقيـة افراد الجماعة يجب ان تعرف واقع هذه الجماعة الفرعية وبالتالي فهي على علم بها ،

---

(١) Stewart, E.W., Evolving Life styles, pp. 1-5.

(٢) Ibid., pp. 423-444.

لذا فهناك قاعدة مشتركة للفهم أولا وللتعامل ثانيا وهذا الفهم وذاك التعامل انما يتمان خلال الكل الثقافي التي تتميز به الجماعة (٣) .

الثاقفة والسلوك الانساني : ـ

ان الثقافة تعنى مفاهيم مشتركة تلتزم بها اكثرية من جماعة او مجتمع وهذا الالتزام تحتمـــه ضرورة التشارك الحياتى او ان من الضرورى لهـذا التشارك ان يجعل بالامكان توقع ردود فعل الاخرين وهذا بالطبع لايتم الا اذا كانت هناك قاعدة ثقافية متفق عليها توجه في الاقل استجابات الاخرين من ناحية وتهيىء للمواقف الاجتماعية المحفزة للسلوك من ناحية اخرى .

الا ان افتراض وجود التشارك والتزام الغالبية من الافراد به لايعني ان سلوكياتهم تكون متطابقة او حتى متماثلة وانما يشيع نوعا من المماثلة في السلوك الى الحد الذى يميز افراد هـــذه الثقافة من جهة ويسهل التوقعات السلوكية بينهـم من جهه ثانية (٤) .

كيف تبنى القاعدة الثقافية المشتركـــة : ـ

ان بناء مفاهيم مشتركة ثقافية تربط بين افراد الجماعة الواحدة انما يتم من خلال التنشئة التي تمارسها الجماعة نفسها وهذا يعتمد على مايسمى بأداء الثواب والعقاب Rewarding and Punishing Process ويتم تثبيت مثل هذا الاداء عن الطريق التي تستدخل فيه المفاهيم الثقافية الى السلوك اذ يعمل الاباء على ايصاله الى ابنائهم . والواقع ان تعلم مثل هـذه المفاهيم في مراحل مبكرة من العمـر (فترة الطفولة) انما يضفي عليها نوعا من القوة المعنوية Moral Force التي لا تلبث ان تتأصل في نفوس الافراد الذين تعلموها لذا فان الثوابات والعقوبات الخارجية والتي هي مظهر من مظاهر التعبير الاجتماعي ، للقوة المعنوية انما

---

(٣) Ibid., pp. 5-30.

(٤) Ibid., pp. 55-59

تتوافق اثناء عملها مع الاحساسات الداخلية لنفس هذه الثوابات والعقوبات وبالتالي فان توجه الافراد يبدأ بالتمايز بين مايحكموا عليه بانه حسن او ردىء مقبول او مرفوض اجتماعيا وبمعنى آخر فان ربط المفاهيم الثقافية بثواباتها وعقاباتها بالسلوك يعني ان تصبح جزءا متأصلا من السلوك نفسة ينعكس في توجهات الافراد المعنيين وردود افعالهم تجاه المواقف التي اتفق عليها ثقافيا ، وهذا يعني وجود طرائق عديدة يمكن بواسطتها استدخال المفاهيم الثقافيـة للسلوك وجعلها جزء لازماً ولكن هذا لايعني الخضوع لمثل هذه المفاهيم في كل زمان ومكان ضمانا لاستمرار حياة الجماعة لان جانبا من حيوية الحياة الانسانية انما يكمن في قابليتها على التوافق مع الظروف والمواقف الجديدة التي تتبع من المرونة خاصية في خواص الثقافة (٥) .

المفاهيم الاساسية للثقافية والفرعية التابعة لهـا : —

في كل ثقافة هناك مفاهيم اساسية تكون شمولية في تقبلها على صعيد الجماعة بينما هناك مفاهيم اخرى قريبة الاتصال بها ولكن وجودها انما يحققه كونها تابعـة للمفاهيم الاساسية ويمكن ان يطلق على المفاهيم الاولى اسم المحتمة Basic Understandings والثانية التابعة entailed understandings من الامثلة على ذلك ما يلاحظ في بعض المجتمعات البدائية في المحيط الهادى وعلى الاخص بين جماعة التروك Truk اذ يعتقـــد هؤلاء — واعتقادهم نابع من تعليمهم الطفولي الذى ثبت عن طريق صلات جماعتهم المباشرة مما جعل من هذا هذا التعليم قوة معنوية مؤثرة ، بأن الناس بعد موتهم تبقى اشباحهم Chosts في المنطقة التي عاشوا فيها اثناء حيواتهم ويؤكد هؤلاء بان مثل هذه الاشباح انما تشبه البشر والحاجات المادية اذا كان هناك ضوء كاف لرؤيتها مع ان هذه الاشباح تخاف وتتجنب الضياء ويعتبر من لايؤمن بمثل هذه التصورات بأنه غير سوى

---

(٥) Ibid., pp. 59-87

abmormal مثله مثل من لايصدق ان القطعة من الحجر يمكن ان تغطس اذا القيت في الماء (٦).

فاذا ماقبلت المحتمات التي تدور حول الاشباح في مجتمع التروك وسلم بهذه المفاهيم الاساسية فان قبول التصورات التابعة يصبح امرا سهلا ، اى اذا سلمنا بوجود مثل هذه الاشباح فان اختفاءها في النهار يصبح امرا مقبولا يعلل هذا بخوفها من الضياء وبذا يكون هؤلاء الاشباح موجودين بالفعل مما يحقق المفهوم الاساس لهذا التصور اما لماذا لايمكن رؤيتهم فالمسألة تابعة اذ انهم يهربون من الضياء وبذلك يصعب رؤيتهم في النهار او اذا وجه الضوء اليهم في الليل (٧).

وبالمثل تصور الازاندى Azande الذين يقطنون على الحدود بين زائير والسودان في القارة الافريقية ان ما يحصل لهم من صعوبات اثناء تعرضهم للاخطار انما يتأتى من عمل ساحر معاد ولتوضيح هذا التصور فان الازاندى يعتمدون على زراعـــة الغلال وهم يضعونها في اماكن اعدوها للخزن وهي سقائف تعتمد على اعمدة ترتفع بها عن سطح الارض ولما كانت اشعة الشمس حارقة في مثل هذه المنطقة الاستوائية فان العديد من الازاندي يجلسون تحت هذه السقائف هرباً من الحرارة اللاهبة ولكن مايحدث هو ان بعض السقائف تنهار على الجالسين تحتها وذلك بفعل نخر الحشرات المتكاثرة للاعمدة التي تقوم عليها ويتسبب هذا في موت او جرح العديدين وهي ظاهرة عادية العلة منطقيا وواقعيا الا ان الازاندى لهم تفسيرهم الخاص اذ انهم يسلمون بنخر الحشرات للاعمدة وان البعض منها متآكل بالفعل وان هذا سيؤدى بالفعل الى قتل او جرح الذيـن يستظلون بالسقائف هربا من الشمس الحارقة ولكن مايصعب على الازاندى فهمه هو لماذا يحدث مايحدث من توافق بين الاعمدة المنخورة وبين سقوط السائف وموت وجرح الافراد في وقت وزمان معينين ؟ ويرون هذا بأنه من عمل ساحر

---

(٦) SWARTZ, M. J., and Jordan, D.K., Anthropology, p.p. 37-48

(٧) Ibid., pp. 51-53.

فاذا لايوجد سحرة فان السقائف سوف لا تسقط ثم انها اذا سقطت فانها سوف لاتتسبب في موت او جرح أحد (٨).

وبذلك تشكلت لدى ازاندى مفاهيم محتمة او اساسية هي الترابط بين سقوط السقائف وموت او جرح البشر ويحدث هذا بفعل ساحر وهكذا رسخ هذا الاعتقاد الاساسى أن كل المصائب انما لاتحدث لوحدها وانما يجب ان يفتش عن ايدى السحرة وتأثيراتهم وراءها اما كيف تحدث ولماذا اى متى وفى اى مكان فهي مفاهيم تابعة انما تتصل اهميتها بارتباطها بالمفاهيم الاساسية.

وهذا التصور يمثل تنظيما ثقافيا مؤثرا مما يؤكد حقيقة هي ان الثقافة انما تمثل تكوينا ما فوق العضوى Super organic كما انها تكوين ما فوق الفردى الامر الذى يعزز اهميتها لانها تتجاوز التصورات الفردية بالاضافة الى وجودها في الكل التنظيمي للحياه السائدة في الجماعة وليس في الأدءآت او الممارسات او السلوكيات المتناقضة للافراد انفسهم وبمعنى آخر فإن للثقافة نوع من الكيان المتكامل يحتل مكاناً مميزاً في تصـور الجماعة وبالتالي يكون له ثقله المؤثر.

وبالتأكيد فان الثقافة هي القاعدة الساندة للحياة فمن خلال الحضور الثقافي يستطيع افراد الجماعة العيش مع بعضهم وبذلك يعملون على تحقيق تواصلهم الاجتماعي من ناحية وتوفير حاجاتهم الضرورية من ناحية ثانيـة.

وواقعاً فالثقافة عبارة عن منظومة من المفاهيم يتم تبينها بالاشتراك بين افراد الجماعة نفسها وهذا مايجعل من الثقافة المصدر الافضل او الوسائل الاكثر الاهمية والتي تعتمد غالبا في مجالات الاعتقاد والعمل والتقويم. وهذا ينعكس على التعامل بين افراد الجماعة اذ يتعلمون ان مشاركتهم مع بعضهم اعتمادا على المفاهيم الشائعة التي تعلموها انما يعني انهم على صواب في عملهم وبالعكس اذا عملوا

---

(٨) Ibid., pp. 54-56.

ضد ماتعارفوا عليه من مفاهيم فانهم يشعرون بالخطأ وطبيعي ان الصواب في الاعمال يثاب اجتماعيا والا فان العقاب من نصيب الاعمال الخاطئة وهذا مايقوى بالضرورة المقاهيم المشتركة ويوثق ارتباطها بحياة الجماعة وسلوك افرادها ويجعل من المتعارفات الثقافية لازمة حياتية (٩) .

والخاصة الرئيسية للثقافة هي تراكميتها اذ بمرور الوقت تضاف مفاهيم جديدة الى تلك التي يلتزم بها الافراد ضمن الجماعة وهذه الاضافة قد لايقف تأثيرها عند حد توسيع القاعدة الثقافية ولكن قد يعني تغييرا للثقافة نفسها وهذا راجع الى الخاصية المتحركة للافراد وكذلك الجماعات فهم لا يتصرفون ضمن المدى المحدد لهم ثقافيا وانما يفرض عليهم تعاملهم مع الاخرين ان يتجاوزا هذه الحدود السلوكية مما يبلور مفاهيم جديدة تضاف الى ماتعلمه الافراد من مفاهيم شبوا عليها (١٠).

ونظرا للمتوارث من المفاهيم الثقافية المشتركة والجديد المضاف اليها فان الكل الثقافي تصبح له اهمية خاصة كونه يمثل الحصيلة الاساسية لسلوك الجماعة الا ان هذا الكل لاترتكز اهميته على وجوده الكمى بقدر ماترتبط اهميته بالشكل التنظيمى الذى يربط بين المفاهيم الثقافية والذى يتمثل بحركة هذه المفاهيم اى من له الاولوية ؟ وتحت اية ظروف ومتى تتوافق مثل هذه المفاهيم ؟ ومن نتاج هذا الشكل التنظيمي وليس من المجموع الكلي للمفاهيم الثقافية تتبلور ثقافة الجماعة بالاضافة الى ان اى تغيير في الاسلوب التنظيمي للمفاهيم الثقافية يؤدى الى التغير الثقافي وقد يواكب هذا التغيير تغير في محتوى الثقافة نفسه اى انهما يتفقان في حركة التغيير . (١١)

ماهي صلة الثقافة بالسلوك ؟

من المعلوم ان الثقافة تختلف عن السلوك اذ انها ليست سلوكا وانما يمكن ان

---

(٩) Sherif, and Sherif., AN Outline of Soeialpsyehology, pp. 449-488

(١٠) SWARTS, and Jordan, pp. 60-64.

(١١) Ibid., pp. 64-72.

ان تدرك بكونهـا الموجه للسلوك guide for behaviour وهي توجـد في افكار الناس الذين يشتركون في امتلاكها اذ انها ترسم الخطوط الاساسية لحياة الناس وليس لسلوكهم فقط ولكن هذا لايمنع من وجود تفاوت بين نوعين من السلوك هما : —

١) السلوك كما وصف ثقافيا Behaviour prescribed by culture

٢) السلوك كما هو معتاد Actual behaviour

وهذا يقود الى استنتاج — هو ان السلوك المعتاد يحتفظ بخاصية الحركة اكثر من السلوك المصمم ثقافيا مما يجعل من السلوك المعتاد عاملا ديناميكيا يساعد على دعم مطاطية التعامل الانساني من ناحية في الوقت الذى يغنى فيـه المفاهيم الثقافية من ناحية ثانية .

الا ان ناحية اساسية يجب ان تكون حاضرة في هذا المجال هي الترابط بين هذين الضربين من السلوك اذ تبقى المسألة اضافة واغناء وليس ابتعادا وانقطاع — الا اذا كانت الظروف الطبيعية والحياتية غير ملائمة مما يعني الانقطاع بين السلوك المصمم والسلوك المعتاد وقد حدث هذا بالنسبة لثقافات بادت كثقافة الازتك في المكسيك (١٢) .

ونظرا لتعدد الجماعات فان الثقافات هي الاخر تتعدد وهذا يؤدى الى ما يسمى بالنظرة السلالية Ethnocentrism وسلبية هذه النظرة هو ان ثقافة الجماعة وبفعل مفاهيمها المشتركة وتمسك الاغلبية بها وما يرافق هذا من فرض ثوابات وعقابات فان نظرات افراد الجماعة الى ما هو خير او شر حسن او قبيح خطأ او صواب انما يتأثر بالمتعارفات الثقافية او المفاهيم المشتركة وقـد يعنى النظر الى الممارسات الثقافية للاخرين بانها شريرة او قبيحة او خاطئة وهذا هو مصدر السلبية في النظرة السلالية اذ قد يحكم على الثقافات الاخرى او الجماعات الغريبة من خلال ماتواضعت عليه الجماعة نفسها وبتأثير في متعارفاتها (١٣) .

---

(١٢) STEWART, pp. 273-291.

(١٣) KUPPUSWAMY, B., Soeial psyehology, pp. 30-34

وللخروج من مثل هذه السلبية في الحكم انطلاقا من ضيق النظرة الثقافية فان وجهة النظر القائلة بنسبية الثقافة Cultural relativism هي الاكثر انطباقا على الواقع لان لكل جماعه متواضعاتها الاجتماعية متعارفها (مفاهيمها المشتركة) الثقافية لذا فان فهم الجماعة وثقافتها انما ينطلق من التعرف على هذه المتواضعات والمتعارفات والا يصبح الحكم على الثقافة حكما قيميا يترتب عليه خطأ في النظرة الى الثقافات الاخرى يصم العلاقات الثقافية على الصعيد العالمي باللا علمية واللاانسانية (١٤).

ماهو البناء الاجتماعي Social Structure

يعنى مفهوم البناء الاجتماعى الاسم الذى يطلق على العلاقات الاجتماعية وعلى الشكل التنظيمي لهذه العلاقات. ونظرا لاهمية الترتيب في الحياة الاجتماعية فان من الضرورة بمكان ان يتمكن الافراد من التوقع وضمن حدود مقبولة مايمكن ان يفعله الاخرون (١٥).

وتلعب الثقافة دورا اساسيا في تحقيق مثل هذا الترابط الانساني عن طريق تقديمها لنماذج سلوكية ترتكز الى مفاهيم مشتركة يمكن ان تشكل بمجموعها القاعدة التي يعتمدها التواصل والتوقع بين الافراد.

وهذا يعني ان الثقافة هي التي تكون الاساس للبناء الاجتماعي. ولكن البناء الاجتماعى انما يعمل على توزيع الكل الثقافى لكى يصبح ممكنا التوصل الى اتفاق حول مايمكن التشارك حوله وبين من يتم التشارك بينهم وتحت اية ظروف (١٦).

اما المراكز الاجتماعية Social Statuses فانها رتب يتخذها المجتمع تعتمد على المفاهيم المشتركة التي تخصص من يتواجد في مثل هذه الرتب وهناك مفاهيم

---

(١٤) Ibid., pp. 34-44

(١٥) SWARTS, and Jordan, pp. 82-86.

(١٦) Ibid., PF. 87-88.

اخرى مشتركة يمكن ان نسميها توقعات تملا بها كل من هذه الرتب . ومثل هذه ـ التوقعات انما تؤثر في الوسائل التي يستخدمها افراد الرتبة وذلك في ظل الظروف مختلفة مع تحديد تصرفات الآخرين بالنسبة لهم ، مثل هـذه التوقعات الخاصة بعلاقة معينة تسمى بالدور Role ومن الملاحظ ان العلاقات الاجتماعية انما تتناسج مع بعضها البعض وذلك بفعل التوقعات التي يحملها كل طرف تجاه الطرف الاخر مثل هذا التناسج Interlocking اذا كان حاضرا فان العلاقات الاجتماعية تصبح منظمة فاذا اريد لمثل هذا التنظيم ان يؤثر في السلوك فان من المهم توفير خاصية اساسية هي ان المشاركين في العلاقات الاجتماعية يمكن ان يتأثروا بالتوقعات اذا تعرضت علاقاتهم للانفصال (١٧) .

وهذا يعني ان العلاقات الاجتماعية قد تكون توقعاتها في اطراف متباعدة وبالتالي فان عناصر البناء الاجتماعي لايشترط ان تكون جزءا من الادراك الفردى كما هو الحال في الثقافة لكي تؤثر مثل هذه العناصر على سلوك هذا الفرد . بالاضافة الى ان ـ البناء الاجتماعي انما يقدم للناس اساساً العلاقات الاجتماعية ويبقى على هؤلاء الناس ان يحققوا أهدافهم من خلال المفاهيم المشتركة او الرغبات الشخصية وربما توافق الاثنان معا .

وهذا لايعنى ان العلاقات الاجتماعية وماتحمله في متوافقات ثقافية انها كلها تسعى لخير المجتمع الانساني اذ ان بعضها قد يقود البعض في هذا المجتمع الى مايخالف المتفق عليه ثقافيا او المرغوب فيه شخصيا ولكن بعض هذه العلاقات بصرف النظر عن كونها مرغوبا فيها ام لا الا انها تمارس نظرا لكونها موصلة الى مايرغب فيه من اهداف (١٨) .

العلاقات والجماعة :

ان العلاقات الاجتماعية انما تنظم داخل الجماعات المختلفة بدافع من كونها

---

(١٧) Ibid., pp. 90–92.

(١٨) Ibid., pp. 93–97.

مرتبطة بقاسم اجتماعي قد يتضمن بعضها فعاليات مشتركة او تعاونية ، وواقعا فان العلاقات الاجتماعية قد تكون غاية في حد ذاتها وقد تكون وسائل قد جهزتها الثقافة في سبيل التوصل الى غايات مرغوبة ابعد وتتبع غائيه او وسيليه العلاقات الاجتماعية ان الفرد انما تتعدد لديه المراكز الاجتماعية في الوقت الذى يتكاثر فيه الناس ضمن الجماعة الواحدة وهذا مايعدد تنوع العضوية اولا ويغير مراكز الجماعات من وقت لاخر ومن موقف لموقف ثانيا .

ويتبع هذا ان تشعر جماعة بانها تتضمن نفسها فقط ولكن جماعات اخرى توسع دائرتها الاجتماعية لكى تضم جماعات غير الجماعات المركزية ويتم هذا الضم اما عن طريق الدمج في الجماعة المركزية وبذلك تتكون وحده جماعة جديدة او ان تبقى الجماعات التي انضمت محافظة على استقلالها ووحدة العلاقات الاجتماعية في الوقت الذى ترتبط فيه بالجماعة المركزية .

هذا وقد يتم تجمع على اصعدة الجماعات المختلفة لان الاعضاء في مثل هذه الجماعات انما يريدون لكل جماعة ان تحقق الغايات الخاصة بها ولكنهم يسعون في الوقت نفسه الا يكون مثل هذا التشوف نحو تحقيق الغايات المختلفة قائما على ابقاء الصراعات والاتفاقات بين افراد هذه الجماعات (١٩) .

ما هي الصلة بين الثقافة والبناء الاجتماعي ؟

ان الصلة بين الثقافة والبناء الاجتماعي هي ان الثقافة تعنى وجود متعارفات مشتركة Shared understandings تؤلف هذه المتعارفات او المفاهيم المشتركة القاعدة التي يمكن ان يتفق عليها افراد ضمن نطاق الجماعة او المجتمع .

ومثل هذه المتعارفات المشتركة بعد الاتفاق عليها يجب ان تتحرك على النطاق الاجتماعي وذلك عن طريق البناء الاجتماعي اى ان هذه المتعارفات يجب ان تنتشر مما يحقق الاغراض الاتفاقية التالية : —

---

(١٩) DANZIGER, Kurt, Socialization, pp. 14-18

١) ماذا يمكن ان يطبق من هذه المتعارفات ؟

٢) لمن يمكن ان تطبق ؟

٣) تحت اى ظروف يمكن تطبيقها ؟

وطبيعي ان هذه المتعارفات انما يتعلمها الفرد من ابويه وذلك بواحدة في الوسائل التالية او بمجموعها : —

١) بتقليد أبويه أو من يحيط به .

٢) بتعلم اللغة المتكلمة ضمن تركيبته الاجتماعية .

٣) عن طريق التعلم الشكلي .

وعلى الرغم من شمولية هذه المتعارفات فان للفرد اهميته الخاصة في توافقه او رفضه لمثل هذه المتعارفات الا ان هناك متعارفات اساسية يتوجب التمسك بها من اجل ايجاد قاعدة اساسية ضرورية تعتبر الرابط الرئيس لافراد الثقافة نفسها اما تدوير ونشر هذه المتعارفات فانما يتم عن طريق البناء الاجتماعي الذى تتبناه الجماعة ولكن المسألة الهامة من وجهة نظر علم النفس الاجتماعي هي الصلة بين المتعارفات الثقافية والبناء الاجتماعي من جهة وبين الفرد من جهة ثانية والمسألة الهامة الاخرى هي كيف يتعامل الفرد مع المؤثرات الاجتماعية المحيطة من خلال انعكاسها في مؤسسات اقتصادية او سياسية او عائلية او دينية والتي تعتمد على تلك الصلة الرابطة بين الفرد وبين الاخرين الذين يكونون وسطه الاجتماعي وهي في اساسها تنهض على قدره هذا الفرد في امتلاك توقعات عما يمكن ان يصدر عن الاخرين ومايتوقعه في اعمالهم (٢٠) .

العلاقة بين اطراف المعادلة السلوكية : الثقافة والبناء الاجتماعي والفرد .

لما كانت هناك متعارفات مشتركة قد اوجدتها الثقافة السائدة وقام بتحريكها وتوزيعها البناء الاجتماعي القائم فان الافراد وبفعل تأصيل المتعارفات في سلوكيتهم

---

(٢٠) Ibid., pp. 20-31.

انما يتصرفون وفقا لها متخذين من مشاركتهم في البناء الاجتماعي وسيلة لاثبات فاعلية المتعارفات لتظل مكونة قاعدة مشتركة تربط افراد الجماعة وتكويناتها الاجتماعية ومن هنا جاءت ظاهرة التوافق مع الثقافة ولكن هذا التوافق ليس مطلقا فهناك افراد لايتوافقون الانادرا وغيرهم لايتوافقون في احيان كثيرة بينما قسم ثالث قد يفشل في محاولته للتوافق الا ان استمرار المتعارفات الثقافية يعكس دون شك ان غالبية افراد الجماعة هم في توافق دائم مع هذه المتعارفات لذا فان المعادلة السلوكية انما تتأثر الى حد بعيد بمدى التعرف على واقع هذا التوافق ولماذا يكون هناك لاتوافق (٢١) .

ان التوافق مع المتعارفات الثقافية على الرغم من كونها غير مرغوب فيها الا ان مناهضتها تترتب عليه عقوبات يتعرض لها من يعمل على عدم التوافق وعلى الرغم من العقوبات التي تترتب على هذه المناهضة فان العديد من الافراد انما يتقبلون مثل هذه العقوبات مفضلين اياها على عمل مايرونه خطاءاً اذ يندر أن يتجاوب الفرد مع مايفرض عليه بالقوة فهناك رافضون وثوار ومتحدون لم يتوافقوا مع المتعارفات السائدة على الرغم من انهم يعرفون انهم بعملهم هذا يقعون تحت طائلة العقاب وهذا ماخلده التاريخ حيث تعرض العديد من هؤلاء الرافضين للتعذيب بل وحتى للموت (٢٢) .

وقد يثبت اجتماعيا ان ممارسة الثقافة من خلال البناء الاجتماعي للقسوة والتعسف يجعل الفرد عارفاً لما يمكن ان يترتب من نتائج بناء على عدم توافقه لذا فان الاختيار كان د وما يتجه صوب تجنب نتائج اللاتوافق ولكن مثل هذا التفسير لغرض التوافق أيضاً يتعارض مع فهم واقع التغير الاجتماعي اذ الرأى السائد ان تقبل الجديد انما يأتي عن طريق الفرض هذا الرأى دون شك جهـل فاضع بديناميكيات التغير الاجتماعي التي هي اعقد من مثل هذا التصور . وللتعرف على

---

(٢١) Ibid., pp 32-37.

(٢٢) Ibid., pp. 42-74.

الطرق التي تسلكها الجماعة في عملها : علينا ان نفهم كيف تؤثر الثقافة في السلوك وهذا يعني ان فرض النمط السلوكي بالقوة لايؤمن ادخاله مجال التصرف الفردى وانما يجب ان يصاحب هذا فهم للتركيب السلوكي نفسه وبذلك يقرن بين ماتمارسه الثقافة من فرض وبين مؤثرات مصاحبة لقبول او رفض او مساومه وهنا يبرز مفهوم الشخصية personality الذى يعتبر اساسا لفهم عملية انتقال المتعارفات الثقافيـة (٢٣).

ماهي الشخصية وكيف تعمـــل ؟

يمكن ان تعرف الشخصية بانها مجموع العمليات السلوكية التي تنم داخل التركيبة النفسية للفرد والتي لايمكن رصدها مباشرة وانما يمكن التعرف عليها خلال ملاحظة السلوك ذاته (٢٤).

وهناك حقيقة هي ان الشخصية لاتتطابق في واقعها مع السلوك ولكن نظرا لتداخل عملياتها مع السلوك ولد مثل هذا الخلط في الوقت الذى يمكن فيه القول بان العمليات المتضمنة في الشخصية هي التي تسيطر على السلوك.

وبذا فالشخصية تتكون من عمليات هذه العمليات السلوكية تتبعها عمليات اصغر حتى يتكون كل سلوكي يمكن ان يحمل اسم الشخصية التي يمكن ان تحدد عناصرها كالاتـي : —

١ — الحثية Motivation

٢ — التعلـم Learning

٣ — الادراك Cognition

والعنصر الاول انما يتضمن العنصريين التاليين اذ يمكن ان تطغى الحثيه على السلوك بكامله عدا بعض الافعال الانعكاسية اما الادراك فهو فهم الفرد العقلـي

---

(٢٣) KUPPUSWAMY pp. 164-165.

(٢٤) Ibid., pp. 166-167.

لما يتواجد ويدور حوله او كيف يفكر الفرد نفسه في الوقت الذى يعني التعلم الاداء الذى بواسطته يزيد الفرد نصيبه من المعرفة لما يحيط به من ظواهر وهذا يعني ان الحثيه والادراك لايكونان واقعا في مجال عناصر الشخصية اذا لم يكن هناك تعلم في الوقت الذى لا يتم فيه التعلم الا اذا كان هناك حث وتحريك لمثل هذا التعلم مما يساعد في الوقت ذاته على تنشيط الجانب الادراكي مما يجعلنا نؤكد على اهمية الحثيه في بناء السلوك مع ما يمتاز به هذا العنصر من تعقيد في عملياته فهو الذى يحفز الفرد على التعلم في الوقت الذى يساعد فيه الجانب الادراكي على البناء .

وبهذا يكون الجانب الحثى اهم المحركات السلوكية وهذا الاداء لا يمكن التعرف عليه الا اذ تم التعرف على مكوناته وهي : —

١ — المحركات Drives

٢ — الوسائل Means

٣ — الاهداف Goals

والمحركات يمكن اعتبارها الاداءات العقلية التي تشرع بتحريك السلوك ومتابعة هذه الحركة . وبعض هذه المحركات قد يرتبط بالنواحي الجسمية للانسان كالجوع مثلا الا ان محركات اخرى انما تعمل على مستويات اكثر تعقيدا منها ذلك المحرك الخاص بتقـدير الذات Self-esteem والذى يرتكز اساسا على الخبره الاجتماعيـة في الوقت الذى يكون وصله ضعيفا بالتكوين الجسمي الذى فطر عليه الانسان . وبدون شك فان كلا من هذه المحركات انما يتكون من سلسلة من الاحداث العقلية التي تتضمن الاحساس والفرز والتنشيط للوسائل في الوقت الذى تلعب فيه المحركات نوعين من الادوار الاول ايجابى يفضى الى شيء معين والثاني ردعى لاعاقة شيء معين (٢٥) .

---

(٢٥) DANIGER, pp. 71-80

اما الوسائل فانها اداءات ينشطها المحرك وظيفتها انها تساعد الفرد على التفتيش في مخزونه من الخبرات الاجتماعية التي تعلمها لكى يختار منها ما هو متناسب مع المحرك ويوصل في ذات الوقت الى الهدف الذى هو بدوره اداء عقلى يعتمد على ما تعلمه الفرد والهدف يتضمن ادائين ثانويين هما الاختيار والحكم Selection and Judgement والاهـداف بدورها انما تنحو نحو تحقيق غرض ايجابي او ابعاد مؤثر سلبي وهي مرتبطة بالجانب العقلي ارتباطها باللذة والالم (٢٦)

كيف يعمل الاداء الحـشى ؟

لنتصور ان الفرد قد تحفز بفعل مؤثر معين يرتبط بتكوينه الجسمي كالاحساس بالجوع فالجوع عندئذ يلعب دور المحرك ويترتب على الفرد ان يتعامل مع الحافز الجديد لانه يثير توترا لابد من التخفيف منه وفي هذه الحال على الفرد ان يمر بمكونات الحث اذ عليه ان يختار الوسائل والغايات التي تساعده على التقليل من التوتر الذى تعرض له . وفي مثالنا السابق فان قدميه ستقوده الى المطعم حيث يمثل الوسيلة التي توصل الى تخفيف توتر الجوع وبالتالي فهو يحقق الهـدف الذى يتمثل في الشبع .

وطبيعي ان هذا العرض المبسط للعمليات الحثيه المعقدة لايرتبط بالجانب الجسمى فحسب وانما يرتبط بالجانب العقلى وذلك عن طريق المرور بحقل خبرات الانسان المتعلمـه .

وهذا التوازن بين خفض التوتر وبين الاستجابة الجسيمة انما يمثل علاقة في أبسط مستوياتها اذ ان خفض التوتر انما يعتمد – وهذا راجع الى الحالة التعقيدية للمجتمع حضاريا – على الخبرات مافوق الجسيمة فقد يدخل عامل تقدير الذات في اختيار الوسيلة وبذلك تربط الوسائل والغايات بمستويات عقلية ترتبط بالخبرات

---

(٢٦) Ibid., 81–89.

مما يجعل من اختيار الوسائل عملية اهم في ذاتهـا من الوسائل نفسها او من الاهداف (٢٧).

ونظرا لعدد المحركات والمثيرات وعلى الاخص في المجتمع الصناعي المعاصر لذا فان الفرد يمر بالعديد من المواقف الاجتماعية التي تفرض عليه ان يتعامل مع عددا اكبر من المحركات.

كما ان عليه ان يحدد الوسائل والغايات التي عن طريقها يمكن خفض حـدة التوترات التي تخلق نتيجة الضغوط التي يتعرض لها جراء تعدد وتقعد محفزات وسطه وهذا التعقيد والتعدد في المحركات وفي الوسائل التي يتبعها يجعل من الصعب الحكم على الغاية التي يسعى اليها الانسان من مجرد عينه محدودة من سلوكه وانما يجب التوسع في أخذ العينات حتى يحكم وبواقعية على الغايات التي التي يتوخاها الفرد من وراء اختياره لوسيله دون اخرى في وسط حضارى سريع الحركة والتغيير (٢٨).

كيف يتم تنظيم الشخصيـــة ؟

نعنى بتنظيم الشخصية The organization of personality محورتها حول دافع Motive معين وهذا الدافع يختلف باختلاف الافراد وتجاربهم السلوكية فقد تنظم الشخصية حول ما يسمى بالاعتبار Prestige وبذلك فمثل هذا الفرد قد يضحي بالعـديد من رغباته او حتى اشباع بعض الحاجات الضـرورية في سبيل جعـل شخصيته تنتظم حول الدافع الذى اختاره لها اذ قد يلجأ البعض الى الجوع ولفترات طويلة لكى لا يضحى باعتباره الذاتي كان يذهب الى نوع خاص من المطاعم او يتناول شكلا معينا من الطعام . ولكن مثل هذا العزوف عن الطعام لابد وان يتعادل في تأثيره مع ضغط الاحساس بالجوع وبذلك ينشأ

---

(٢٧) MCKEE, J.B., Introduetion to Soeiology, pp. 84-85

(٢٨) Ibid., pp. 86-90

نوع من التوازن بين خفض حافز الجوع من ناحية وبين التمسك بالاعتبار من ناحية ثانية (٢٩).

ويعتبر تنظيم الشخصية من الظواهر التي تتصل بالفرد نفسه اى انهـا ظاهرة ذاتية لا يشاركه فيها الاخرون الذين قد يتعرضون لنفس المحفزات السلوكية وضمن نفس الظروف الاجتماعية الا ان الاختلاف في اختيار الدافع الاساس الذى يكون المحور في تنظيم الشخصية وبالتالي في اعادة ترتيب الاداءات المختلفة متجها صوب الدافع المحورى الذي إختاره الفرد.

ولكن هذا لاينفى وجود نوع من التشابه في السلوك بين الشخصيات التي تنتمى الى نفس الثقافة اذ أن الاداءات المكونة للتراكيب السلوكية تكون متقاربة كونها متأثرة بسقف ثقافي واحد وبنظام اجتماعي يعمل على توزيع الصفات الثقافية بين الافراد مما يجعل نحزوناتهم من الخبرة ونزوعهم الى التجربة كلها عمليات تتم في ظروف ثقافية اجتماعية متشابهة مما ينتج عنه نماذج سلوكية متقاربة الا ان هذا لايعني تطابقاً في تراكيب الشخصيات لان اختيار الدافع المحوري يظل عملية تتميز بالفردية وتلعب الذات دوواً مؤثرا في هذا المجال.

المفاهيم المشتركة والدوافع السلوكيـــة :

يختلف البشر في مجتمعاتهم عن بعضهم البعض فيما يتميزون به من سلوك هو في واقعه ردود افعالهم المنظمة اثناء تعاملهم مع الاوساط الطبيعية والاجتماعية فلكل مجتمع خبراته المتمثلة في سلوك افراده عند تعرضهم لمحركات معينة كالعمل والاختلاط وممارسات الهوايات المختلفة والتمييز بين مايمكن ان يكون اساسيا أو هامشيا في المجال السلوكي ولكن لماذا يختلف البشر ضمن مجتمعاتهم في خبراتهم السلوكية وبالتالي يتباينون في ردود افعالهم وتنظيم شخصياتهم ؟ والجواب هو ان لكل مجتمع ثقافة هذه الثقافة عبارة عن الجامع النوعى لمفاهيم

---

(٢٩) Ibid., pp. 93-97

مشتركة يمكن ان ان تسمى بالمتعارفات نظرا للاجماع على التمسك بها وعقاب من يخرج عليها وثواب من يتمسك بها .

ولكن هذه المتعارفات تكون تركيباً شديد التعقيد يعمل كمظلة سلوكية تغطى الجماعة اذن كيف يتسنى للفرد التعامل معها ؟

الواقع ان هذا التعامل انما يتم عن طريق تبنى الافراد للمتعارفات ، وبمعنى آخر فان ماتعارفت عليه الثقافة بانه « خطأ » أو « صواب » انما يستدخل في السلوك الفردى حتى تتطابق الاحكام اذ يتبناها الفرد فيصبح خطأ وصواب الثقافة السائدة هو صوابه وخطاؤه مما يقرب المفاهيم الثقافية ويجعلها تتحرك على اصعدة التعامل الفردى (٣٠) .

وقد عالج هذه العملية اى تحويل المتعارفات الثقافية الى اداءات سلوكية يتبناها الافراد عالم النفس التحليلي فرويد Frued اذ حاول تطبيق مخططه السلوكي فهو يسمى مثل هذه المتعارفات بالانا الاعلى Super Ego وعنده ان الانا الاعلى انما تتداخل مع الانا ومع الهو وبذلك تسهل عملية تحويل الثقافة الى سلوك فردى ويطلق على مثل هذه العملية اسم التطبيع او التنشئة الاجتماعية Socialization ويراد بها ترجمة المتعارفات الثقافية الى خبرات سلوكية وغرزها في سلوك الافراد او الوصل بين السقف الثقافي وبين حركة الافراد في مجال الواقع المعاش وهنا يلعب الوالدان أدوارا اساسية في التقريب بين المفاهيم المشتركة للثقافة وبين السلوك الفردى (٣١) .

ولما كانت المفاهيم المشتركة او المتعارفات الثقافية قد تأصلت فيها جوانب عاطفية واخرى عقلانية على الاغلب اذ ان هناك الكثير من التداخل بين هده الجوانب نظرا لكونها تتجمع في كل نوعى الا ان الفوارق بين عاطفية وعقلانية

---

(٣٠) Ibid., pp. 107-109.

(٣١) Ibid., pp. 109-110.

نوع من التوازن بين خفض حافز الجوع من ناحية وبين التمسك بالاعتبار من ناحية ثانية (٢٩).

ويعتبر تنظيم الشخصية من الظواهر التي تتصل بالفرد نفسه اى انهـا ظاهرة ذاتية لا يشاركه فيها الاخرون الذين قد يتعرضون لنفس المحفزات السلوكية وضمن نفس الظروف الاجتماعية الا ان الاختلاف في اختيار الدافع الاساس الذى يكون المحور في تنظيم الشخصية وبالتالي في اعادة ترتيب الاداءات المختلفة متجها صوب الدافع المحورى الذي إختاره الفرد .

ولكن هذا لاينفى وجود نوع من التشابه في السلوك بين الشخصيات التي تنتمى الى نفس الثقافة اذ أن الاداءات المكونة للتراكيب السلوكية تكون متقاربة كونها متأثرة بسقف ثقافي واحد وبنظام اجتماعي يعمل على توزيع الصفات الثقافية بين الافراد مما يجعل نحزوناتهم من الخبرة ونزوعهم الى التجربة كلها عمليات تتم في ظروف ثقافية اجتماعية متشابهة مما ينتج عنه نماذج سلوكية متقاربة الا ان هذا لايعني تطابقاً في تراكيب الشخصيات لان اختيار الدافع المحوري يظل عملية تتميز بالفردية وتلعب الذات دوواً مؤثرا في هذا المجال .

المفاهيم المشتركة والدوافع السلوكيـــة :

يختلف البشر في مجتمعاتهم عن بعضهم البعض فيما يتميزون به من سلوك هو في واقعه ردود افعالهم المنظمة اثناء تعاملهم مع الاوساط الطبيعية والاجتماعية فلكل مجتمع خبراته المتمثلة في سلوك افراده عند تعرضهم لمحركات معينة كالعمل والاختلاط وممارسات الهوايات المختلفة والتمييز بين مايمكن ان يكون اساسيا أو هامشيا في المجال السلوكي ولكن لماذا يختلف البشر ضمن مجتمعاتهم في خبراتهم السلوكية وبالتالي يتباينون في ردود افعالهم وتنظيم شخصياتهم ؟ والجواب هو ان لكل مجتمع ثقافة هذه الثقافة عبارة عن الجامع النوعى لمفاهيم

---

(٢٩) Ibid., pp. 93-97

مشتركة يمكن ان ان تسمى بالمتعارفات نظرا للاجماع على التمسك بها وعقاب من يخرج عليها وثواب من يتمسك بها .

ولكن هذه المتعارفات تكون تركيباً شديد التعقيد يعمل كمظلة سلوكية تغطى الجماعة اذن كيف يتسنى للفرد التعامل معها ؟

الواقع ان هذا التعامل انما يتم عن طريق تبنى الافراد للمتعارفات ، وبمعنى آخر فان ماتعارفت عليه الثقافة بانه « خطأ » أو « صواب » انما يستدخل في السلوك الفردى حتى تتطابق الاحكام اذ يتبناها الفرد فيصبح خطأ وصواب الثقافة السائدة هو صوابه وخطاؤه مما يقرب المفاهيم الثقافية ويجعلها تتحرك على اصعدة التعامل الفردى (٣٠) .

وقد عالج هذه العملية اى تحويل المتعارفات الثقافية الى اداءات سلوكية يتبناها الافراد عالم النفس التحليلي فرويد Frued اذ حاول تطبيق مخططه السلوكي فهو يسمى مثل هذه المتعارفات بالانا الاعلى Super Ego وعنده ان الانا الاعلى انما تتداخل مع الانا ومع الهو وبذلك تسهل عملية تحويل الثقافة الى سلوك فردى ويطلق على مثل هذه العملية اسم التطبيع او التنشئة الاجتماعية Socialization ويراد بها ترجمة المتعارفات الثقافية الى خبرات سلوكية وغرزها في سلوك الافراد او الوصل بين السقف الثقافي وبين حركة الافراد في مجال الواقع المعاش وهنا يلعب الوالدان أدوارا اساسية في التقريب بين المفاهيم المشتركة للثقافة وبين السلوك الفردى (٣١) .

ولما كانت المفاهيم المشتركة او المتعارفات الثقافية قد تأصلت فيها جوانب عاطفية واخرى عقلانية على الاغلب اذ ان هناك الكثير من التداخل بين هده الجوانب نظرا لكونها تتجمع في كل نوعى الا ان الفوارق بين عاطفية وعقلانية

---

(٣٠) Ibid., pp. 107-109.

(٣١) Ibid., pp. 109-110.

المتعارفات تبقى لها اهميتها مما يجعل من الضرورى قيام الام والاب سوية بترجمة المتعارفات حيث يبرز نوع من التخصص في عملية التنشئة (٣٢).

وقد ركز العديد من المختصين بعلم الانثروبولوجيا النفسية مع روث بندكت وماركريت ميد على ابراز دور الام في التنشئة وتقديمه على دور الاب نظرا لتأخر الجانب العقلاني للسلوك الانساني من ناحية وكون الجانب العاطفي هو الارضية التي يمكن ان يبرز عنها الوجه العقلاني للسلوك من ناحية اخرى. وقد اكد هذا الاتجاه فرويد نفسه عندما ربط بين الهو ID وبين الذات العليا حيث الخلاف كبير بين مخزونات السلوك المطمورة في أعماق النفس الانسانية وبين الذات العليا وما تتميز به من عقلانية وانكشاف في تراكيبها السلوكيـة الا ان وجود مواقف سلوكية كما في المقدس وغير المقدس والمثال والجنس يعكس الى حد بعيد وجود التداخل بين الهو او المخزونات السلوكية المغرقة في العاطفية وبين عقلانية وتزمت الذات العليا (٣٣).

فهل تسمح لنا مثل هذه التوضيحات ان نتوصل الى بعض المفاهيم وهي ان الام تمثل الجانب العاطفي في الوقت الذى يمثل فيه الاب الجانب العقلي؟ وان وجودهما انما يخلق التوازن في بناء الشخصية المقبلة للطفل اذ يكونان اقدر في العمل سوية على نقل المفاهيم الثقافية المشتركة الى السلوك الفردى وتثبيتها فيه ويترتب على الكيفية التي يقومان بها في تأدية ادوارهما الاجتماعية سوية او انحراف الابناء كما يحدث ان تربك عملية التنشئة بغياب احدهما وقد تفشل اذا كان الغائب هو الام.

ديناميكية العلاقة بين الثقافة والبناء الاجتماعي والشخصية :

ان المكونات الرئيسية للسلوك الانساني هي في واقعتها ثلاثة وهي : —

أ — الثقافة ونعنى بها المفاهيم المشتركة او المتعارفات التي يلتزم بها المجموع

---

(٣٢) Ibid., pp. 111-113.

(٣٣) Ibid., pp. 114-116.

الاكبر او الغالبية في التركيب الاجتماعي القائم والتي يترتب على الالتزام بها استمرار حياة الجماعة اما كسرها فيؤدى بشكل او بآخر الى تفويض الجماعة نفسها لذا فان الالتزام بمثل هذه المتعارفات يعنى الثواب وكسرها يعنى العقاب .

ب – البناء الاجتماعى ويعنى تنظيم العلاقات الاجتماعية بحيث تتحول من طابعها الفردى او الآني لكي تعمل بشكل تنظيمي وظيفته الاساس هو ايصال الثقافة ومفاهيمها الى الافراد وبالتالي فهو يساعد على تحويل الثقافة الى واقع سلوكي متحرك عن طريق معاييره الاجتماعية Social Norms والتي تترتب عليها متواضعات اجتماعية .Social Standards

ج – الشخصية وتدل على مقدار النمطية Pattern التي تحصل عليها الفرد من جراء امتلاكه للمفاهيم الثقافية المشتركة خلال تعامله مع البناء الاجتماعي .

وبذلك تمثل الشخصية الناتج السلوكي الذى تأثر بالمفاهيم المشتركة من خلال الثقافة والتي نقلت الى الفرد بواسطة البناء الاجتماعي السائد لتمكينه من تكرار حياة الجماعة بالنسبة للمواقف الجديدة التي تواجه الحياة الاجتماعية في صراعها مع المؤثرات البيئيـة .

وبمعنى اوضح فان الشخصية هي عبارة عن الجماعة في الفرد في موقف مجابه تجاه المؤثرات الطبيعية ، ونظرا للفروق الفردية وتميز البناء الجسمى للانسان بكونه مافوق العضوى فان اندفاع هذا الانسان في صراعه ضد الطبيعة في سبيل تحقيق اهداف جماعته في النمو والاستمرارية انما يدفعه نفس هذا الصراع لكي يتوجه عكسيا للقيام بصراع آخر داخل الجماعة نفسها القصد منه اثبات ذاته اولا وتنشيط الجماعة من الداخل ثانيا اذ يترتب على مثل هذا الصراع العكسي ارباك للبناء الاجتماعي ولما كان البناء الاجتماعي تابعاً للثقافة السائدة ووظيفته توصيل المفاهيم الثقافية المشتركة لتغرز في سلوك الافراد فان البناء الاجتماعي بايصال الحالات الاضطرابية الى الثقافة نفسها بحثا عن الحلول مما يعنى بناء توازن ثقافى – اجتماعى جديد لايلبث ان يتحول الى مفاهيم ثقافية مشتركة جديدة

تساعد في اعادة التوازن للصلة السلوكية القائمة بين الشخصية والبناء الاجتماعي والثقافة اى ان الحركة التقليدية تعود متأثرة بالترتيب المتبع وهو تأثير الثقافة وعن طريق البناء الاجتماعي بالشخصية وليس العكس.

والواقع أن الحركتين تلك النازلة من الثقافة وتلك الصاعدة من الشخصية تعتبران ضروريتين فبقدر ماتكون الاولى (النازلة من الثقافة) اساسية لاستمرار حياة الجماعة تكون الثانية (الصاعدة من الشخصية) ضرورية لتنشيط حياة الجماعة (٣٤).

ويترتب على مثل هذا التوضيح ان انعدام الحركة النازلة يعنى الاغتراب او الضياع وهذا ماتتعرض له العديد من الثقافات الصناعية السائدة في قرننا الحالى وهو يؤكد وجهة نظر ايرك فروم بكونه هروباً من الحرية الحقيقية التي يريد الفرد الفرد واهما الافلات منها وتحقيق حريته الكاذبة اي تحقيق شخصيته على حساب ثقافته (٣٥).

وعلى العكس من هذا فان انعدام الحركة الصاعدة (من الشخصية الى الثقافة) انما يعني جمود الجماعة ثقافيا وبالتالي فان مثل هذا الجمود قد يؤدى الى تحطيم الجماعةاذ يحدث مايمكن ان نسميه بالاغتراب الثقافى او الاغتراب الداخلى للمقارنة بينه وبين الاغتراب الخارجي (اغتراب الشخصية) وقد اشارت روث بندكت في كتابها « الانماط الثقافية » Patterns of Culture الى مثل هذه المفاهيم وان لم تحاول الربط بينها بشكل يوضح المقولات التي طرحتها عن الحركة النازلة من الثقافة الى الشخصية والحركة الصاعـدة (من الشخصية الى الثقافة) ان روث مندكت بمحاولتهـا تقسيم الثقافات الى حاله (ابولونيه) ومنقتحه (ديونيسيه) ومخادعه (دياجوجيه) والتي يمكن ان نردها الى الاصول التي

---

(٣٤) KUPPUSWAMY, pp. 44-46.

(٣٥) Ibid., pp. 49-52.

ابتدعها ازوولد شبنجلر في كتابه (افول الغرب The Decline of the West حيث اكد أن الحضارات (الثقافات) يمكن تقسيمها الى :

أ — الابولونيـــة (الحالمة)

ب — الفاوستية (التاقمة)

واهمية هذا التقسيم انما تنبع من حقيقة اصر عليها شبنجلر هي ان الثقافة الابولونية (الحالمة) انما يحاول افرادها حل مايعترضهم من مشكلات (صراع خارجي واجتماعي داخلي) داخل الثقافة نفسها .

أما أتباع الثقافة الفاوستية (الناقمة) فأنهم يحاولون حل مثل هذين الصراعين (الخارجي ضد الطبيعة والداخلي ضد المجتمع) خارج الثقافة نفسها (٣٦) .

وتوضيح رأى شنجلر يعنى ان الشكل الأول (الابولونية) انما يؤكد على الثقافة واضعاً اياها في مرتبة فوق مرتبة الشخصية . بينما تحاول الثقافة الفاوستية وضع الفردية (الشخصية) في مرتبة فوق مرتبة الثقافة التي تتبعها تلك الشخصية وبالتالي فان شنجلر قد المح الى ماتوصل اليه ايرك فروم او ما كتبت عنه روث بندكت فقد وضع شنجلر اللبنات الافتراضية الاولى للاغتراب ولكن فروم وبتدكت . وبدافع من تركيبتهما (الثقافية الصناعية) لم يستطيعا ادراك شكلين للاغتراب للاغتراب فأدركا شكلا واحدا هو اغتراب الشخصية او الهروب من حريـــة الخضوع للثقافة كما سماها فروم بينما حاولت روث بندكت توسيع مفهوم الاغتراب عند دراستها للقبائل الهندية وكانت غايتها هو تنميط الثقافات وتحويل الاغتراب من كونه ظاهرة تصيب الشخصية الى ظاهرة قد تصيب الثقافة أولا .

وبذلك نظرت روث بندكت الى العلاقة السلوكية بين الثقافة والشخصية من زاوية مناقضة لتلك الزاوية التي نظر منها فروم الى نفس هذه العلاقة لذا كان

---

(٣٦) Ibid., pp. 53-63.

طبيعياً الرجوع الى شنجلر ومحاولة الاستفادة من تخطيطه النظري ومن بنائه الافتراضي في اعادة توضيح العلاقة السلوكية بشكل أكثر واقعية وديناميكية وكانت النتيجة هو الكشف عن مفاهيم العلاقات النازلة والصاعدة والتوسع في مفهوم الاغتراب اذ تبين من هذا العرض وجود اغتراب تصاب به الثقافة نفسها يشبه الى حد بعيد الاغتراب الذى يصاب به الافراد .

ولعل في طرح مفهوم الاغتراب الثقافي مايساعد على تسليط الضوء على وجود جماعات بدائية ومجتمعات حديثة وتراكيب اجتماعية انتقاليـة .

الجماعات البدائية والمجتمعات الحديثة في ضوء المقولات النظرية السابقـة

ان المقولات النظرية السابقة انما امكن الوصول اليها من خلال مقارنات لاطروحات نظرية مختلفة قد اثبتت بعضها الدزاسات الميدانية وعلى الاخص في المجال الانثروبولوجى كما في دراسات روث بندكت ومارکريت ميدوكورا دى بوا . الا ان هذه الدراسات انما انطلقت من افتراضات ناقصة كما في دراسة بندكت التي حاولت ان تجد حلولا لمشاكل ثقافتها الصناعية عن طريق دراسة التراكيب البدائية باعتبار ان مثل هذه الانماط الثقافية البدائية مازالت غير متأثرة بضباب الحضارة الصناعية وبالتالي فان حلولا يمكن ان توجد لدى مثل هذه الجماعات يمكن الاستفادة منها في معالجة المشكلات المعقدة لثقافة مجتمعات العالم الصناعى .

وبالمثل ماركريت ميدفي دراستها لساموا اوكورادى بوا Cora Du Bois في دراستها لجماعة اللور Alore ولكن ماتوصلت اليه مثل هذه الابحاث انما ارتبط وبشكل اساس بالافتراضات المبدئية التي انطلقت منها وهي البحث عن حلول لمشاكل الثقافات المركبة الصناعية لدى الجماعات ذات الثقافات (البسيطة) البدائيـــة .

لذا فان نقطة البداية في هذا البحث انما ستكون بالاعتماد على افتراضات جديدة وبالخصوص مفاهيم الحركة النازلة والصاعدة والاغتراب الثقافي في مقابل الاغتراب الفردى (اغتراب الشخصية) بالاضافة الى الحركة المتجهة

(جماعة – طبقة) والحركة المرتدة او العكسية (فرد – جماعة) والميدان العملى لهذا البحث سوف يعتمد على دراسة دوبوا عن اللور ودراسة Eelik Eelikson للسيوكس Sioux مع دراسة مقارنة لمجتمع صناعى حديث وهى دراسة جنر مردل عن الاختيار الصعب في الولايات المتحدة (Gunar Myrdal, An American Dilemma) فقد درست دوبوا مجتمع اللور وهم جماعة تقطن في جزيرة بهذا الاسم تقع بالقرب من جزيرة تيمور في المحيط الهادى وكانت تسعى من وراء دراستها لهذا المجتمع البدائي التعرف على اثر الثقافة في السلوك الفردى وبالتالي في السلوك النمطي السائد بين الافراد في ذلك المجتمع البدائي اى مجتمع اللور .

وبالفعل فقد لفت انتباه دوبوا الطريقة التجارية المعقدة التي يتعاملون فيها مع عدم وجود نقود لديهم اذ ان وحدة التعامل كانت طبولا من الجلد على الاغلب ولكن كيف يتم الحصول عليها ؟ وطريقه الحصول كانت غاية في الصوبة اذ ان والد الطفل يخصص له حيوانا يربيه فاذا كبر استطاع بيعه والحصول على زوجه ومعها المركز الاجتماعى الذى يؤهله لكى يقبل في مجتمع اللور ولكن عملية استبدال الحيوان بالطبول عملية تتم عن طريق وسيط تجارى حيث يقوم بعملية التقييم وقد يترك الطبل الواحد لديه حتى يستطيع صاحب العلاقة ان يدبر طبلا آخر وبذلك يكون لديه المهر الكافى الذى يقدمه الى والد العروس . والعملية ليست بهذه السهولة فقد لايصبر والد العروس ثم قد لايستطيع الشخص نفسه توفير الطبول الكافية للمهر وبذلك يظل عازبا وهو اسوأ ما يمكن ان يتعرض له الفرد في مجتمع اللور اذ ينظر اليه كونه غير قادر على الارتفاع الى توقعات ثقافته لذا يتوجب على الفرد في مجتمع مثل هذا المجتمع البدائي ان يكون قويا عدائيا حتى حتى يستطيع ان ينتزع حقه من (الوسطاء التجاريين (او المصرفيين اللوريين لان هؤلاء المقرضين قد ينكرون السلع التي تودع لديهم وبذلك تؤدى الشخصية العدائية القادرة على انتزاع الحق الوظيفة المطلوبة منها فى مثل هذا المجتمع .

وكانت هذه النقطة التي بدأت منها دوبوا بحثها اذ اعتبرتها منتصف الطريق بين الطفولة والمراهقة من ناحية وبين الرجولة والهرم من ناحية ثانية ثم حاولت

ان تبدأ باحد اطراف هذه المعادلة السلوكية وكان هذا الطفولة وقد وجدت دوبوا بعد أن عايشت هذا المجتمع ان طفولة اللور تتميز بخصائص منها ان الام تلعب دورا اساسا فى حياة الطفل وعليها ان ترضعه لفترة معينة بينما يكون الاب بعيداً ولكن تنقطع الام فجأة عن ارضاع الطفل وتتركه لوحده لكي تشتغل في المزارع وبذلك يهمل الطفل اذ قد يهتم به اهل الام او قريباتها وهؤلاء قد يقدمون للطفل وجبات تسد حاجته الى الطعام ولكن هذا لايعوض حنان الام وبذلك يرفض الطفل في المراحل الاولى مايقدم اليه من طعام ويتحول الى البكاء والصراخ الى درجة تدفعه نحو تبنى سلوك انفعالى مرضى حاد Tantrum ويستمر بالصراخ والانفعال الا ان ردود فعل الجماعة يكون متفاوتاً بين الاهمال واللامبالاه او تقديم وجبات من الطعـام .

وهكذا كلما زاد الانفعال الحاد لدى الطفل زاد البرود تجاهه من قبل جماعته وحتى اقرب المقربين اليه المتمثلين بأهل الام بل قد يكذب على الطفل حيث يعلل برجوع امه الا انها لايمكن ان تعود مما يزيد في مرضية سلوكـه وتوتر انفعاله الى الحد الذى يبدأ فيه بالموازنة بين الاعتماد على امه والاعتماد على نفسه ثم ينتهي بالاعتماد على نفسه .

وهنا يتجاوز الطفل فترة تعلقه بأمه ويتحول للاعتماد على نفسه وبذلك تبدأ فترة ماقبل المراهقة ويختلط البنون والبنات في هذه الفترة دون فواصل اذ يترك هؤلاء لكى يعتمدوا على انفسهم بين أم تشتغل بعيدا عن اولادها واب لايهمه مصير مثل هؤلاء الاولاد مما يدفع بأحداث اللور الى السرقة في سبيل العيش والابتعاد عن البيت الا ان الام تحاول العود الى البيت في نهاية فترة عملها وتبدأ بتتبع اولادها طالبة منهم الرجوع الى البيت ثانية (٣٧) .

اما المراهقة فانها تمر عادية فقد انفصل الطفل عن امه اولا وابتعد عن بيته ثانياً وبذلك تبدأ الحياة تأخذ طريقا معينا حيث تعود المراهقة الى البيت اما

---

(٣٨) SWARTZ, and , Jondan, pp. 118–122.

المراهق فانه يتجه صوب المجتمع والعلامة المميزة لوصول الرجل الى عز رجولته في مجتمع اللور هو أن يجهز لنفسه او تجهز له وجبة الغذاء (وسط النهار) اما الفتاة فان اتقانها لتدبير البيت هي علامة تحولها الى امرأة .

وبعدها تبدأ عملية الزواج التي يزيدها تعقيدا وجود النظام المالي في مجتمع اللور حيث تأخذ المساومات طريقها وتختبر القدرات العدائية للفرد وقابلتيه على الخصومة ومقارعة الخصوم .

ثم تحل المسألة لصالح الجماعة طبعا وينتهي دور الصراع حيث اتضحت المعالم وتمكنت المفاهيم الثقافية المشتركة من فرض ثقلها مما يؤذن ببدء فترة الركود استعداداً لولادة جديدة مشاكسة ومراهقة معذبة ورجولة تقبل التحدى .

وقد درس ايركسون ERIK ERIKSON تعلم الطفل وتطبيعه في مجتمع سيوكس ووجد ان فترة التطبيع في مثل هذا المجتمع انما تولد في نفس الفرد نوعا من العدائية تجاه افراد الجماعات الاخرى ونزعة العدوا نوعا نوعا من العدائية تجطه افراد الجماعات الاخرى ونزعة العدوان هذه انما تكون أشد في عدوانيتها لدى الرجال منها لدى النساء .

وبدافع من هذه العدوانية فانها اذا تركت لكى تمارس داخل الجماعة نفسها فان هذا سيؤدى الى تحطيم الجماعة لذا فأن العدوانية يجب ان توجه الى خارج الجماعة وبذلك يندمج رجال الجماعة في حروب مع رجال القبائل الاخرى اما اذا انتهت الحرب فان الصراع يتجه نحو الداخل حيث يتكرر حدوث الخصومات الداخلية والجرائم وحالات الادمان (٣٨) .

اما ما كتبه جنرمردل عن الاختيار الصعب في الولايات المتحدة الامريكية فانه يبين التفرقة العنصرية الحادة التي تسود هذا البلد التي تعود الى ماورثه الامريكيون من ممارسات التفرقة التي اصبحت جزءا من متعارفاتهم الثقافية فان الجماعات الامريكية الاولى بفعل تقوية اواصر الصلة بين افرادها ومحاولة

---

(٣٩) Ibid., pp. 135-137.

زيادة فاعلية هيمنة المتعارفات على السلوك الفردى انما غذت مثل هذه التفرقة الى الحد الذى قبلت فيه اجتماعيا وترتب على كسرها اى (اللاعنصرية) انهيار روابط الجماعة ثم ازدادت ارتباطاً بالجماعة عن طريق وصلها بالمعتقدات الدينية السائده .

وكانت مثل هذه الممارسة (التفرقة على اساس اللون) تتفق والتمسك بالمفاهيم او المتعارفات المشتركة الا ان التحول في اساليب الانتاج خلق طلباً على الايدى العاملة للاشتراك في اعمال ازالة ملوحة الاراضي وزراعتها وبلغ هذا التحول ذروته عندما نجح الشمال في الولايات المتحدة في بناء قاعدته الصناعية وحتم هذا طلباً على الايدى العاملة وبذلك تعرضت المتعارفات الثقافية الى هزّه عنيفة حيث بدأ الاتجاه نحو الاستفادة من الايدى العاملة التي كانت معطلة في القطاع الزراعي او فاضت عن حاجته عندما ادخلت الممكنة الى هذا القطاع مما احدث بالفعل اختياراً صعباً امام المجتمع الامريكي فقد تحطمت العديد من المتعارفات الثقافية تحت الحاح الحاجة الى الايدى العاملة وانتقل مركز الثقل من المتعارفات المشتركة الى الممارسات الفردية .

هذا الانتقال انعكس على مجمل عملية التطبيع اذ اخذ الصراع بين البيض والملونين طابعا جديدا هو خوف البيض من ان يستحوذ الملونون على مجالات عملهم بفعل اجورهم المتدنية وليس بدافع الخوف التقليدي من أن الملونين قد يعملون على تحطيم المتعارفات الثقافية وبذلك تنهار الجماعة لذا فان عملية التطبيع وتربية الفرد طفلا ومراهقاً ورجلاً في المجتمع الامريكي المعاصر انما تعكس الحيرة والتشتت لانها تخضع لاختيار صعب اذا انها لاتريد ان تكافيء الفرص وتساوى بين الأجور لانها تطمع في استغلال الملونين وتكريس فائض العمل والقيمة الا انها في ذات الوقت تخاف زحزحه الملونين للبيض واخذ مراكزهم في العمـل .

من هذه الدراسات الثلاث يمكن ان ندلل على مدى اتفاقها مع الاطروحات النظرية التي تقدمت وعلى الاخص الاغتراب الثقافي والاغتراب في الشخصية ثم الحركة النازلة (ثقافة ــ شخصية) والحركة الصاعدة (شخصية ثقافية) .

ففي المجتمع البدائي الذى درسته كورا دوبوا استطاعت الثقافة ان تفرض متعارفاتها على افراد اللور الى الحد الذى عطلت فيه حركة الشخصية وفرضت على هذه الشخصية ان تتعامل من خلال المقرضين (الوسطاء التجاريين) الذين يمثلون في الواقع البناء الاجتماعي الذى يصل الشخصية بالثقافة وبذلك ضمنت الثقافة لنفسها الاستمرار كما انها استطاعت أن تنظم الصراع داخل الجماعة نفسها بتحويله الى الدوران ضمن اطار مؤسسى مالي مما يمكن معه تحديد السبل والغايات التي يهدف اليها مثل هذا الصراع اذ غالباً ما ينتهي بالزواج ماعدا بعض الحالات القليلة وبذلك تكون الثقافة قد حفظت لنفسها الاستمرارية في اللعبة من ناحية كما أنها روضت الشخصية من ناحية ثانية ببناء عدوانيتها طفولياً ثم توظيف هذه العدوانية في التعامل .

اي ان الحركة في مثل هذا المجتمع البدائي (حركة نازلة) من الثقافة الى الشخصية مع استغلال تنظيمات مؤسسيه وسيطة .

ومثل هذه الحركة تشل الشخصية وتحول دون تحركها مما يؤدى بالتالي الى عزلة المجتمع وتحوله الى جماعة او ما يمكن ان نطلق عليه اسم (الثقافة المغتربة) .

اما دراسة ايركسون لمجتمع السيوكس وهم قبيلة من الهنود الحمر في في امريكا فانها تبين تأثير المتعارفات الثقافية على الشخصية واخضاعها للمتعارفات نفسها .

وكما حدث بالنسبة لثقافة اللور فان العدوانية التي اصبحت جانبا ملازما لافراد قبيلة السيوكس انما كان القصد منها الاستعداد للدفاع عن القبيلة وثقافتها في وجه التهديدات الخارجية ولكن فشل هذه القبيلة في امتصاص العدوانية في

في اوقات السلم للحيلولة دون تحولها الى عامل هدم داخلي يعكس الهيمنة القوية للمتعارفات الثقافية الى الحد الذى لم تفوض فيه جزءا من سيطرتها الى البناء الاجتماعي عن طريق تحويل جانب منه الى المؤسسية لكي تتم اللعبة الثقافية الاجتماعية وبذلك باشرت ثقافة السيوكس سيطرتها المباشرة على الشخصية متبعة اسلوب ((الثقافة – الشخصية) بكل ابعاده واستطاعت ان تنجح في اوقات الحرب والازمات نظراً لخضوع الشخصية لثقل المتعارفات في مثل هذه الفترات حيث توضع مصلحة الجماعة واستمرارها في كفة الصدفة مما يسهل ابتلاع الثقافة للشخصية إن مثل هذه المعادلة لاتلبث ان تنكسر عندما تزول فترات الحرب والازمات وتقف الثقافة امام الشخصية دون عازل اجتماعي اذ يتحول الصراع من الخارج الى الداخل مما يؤدي ليس الى (الثقافة المغتربة) وانما الى مايمكن ان نسمية (بالانومية الاغترابي) وهذا ماحدث للعديد من قبائل الهنود الحمر في القارة الامريكيـــة .

بقيت الدراسة التالية لمردل عن المجتمع الامريكي المعاصر والتفرقة العنصرية وهي دراسة تبين عكس ماحدث في الثقافات البدائية التي درسها كل من دوبوا وايركسون اذ أن المجتمع الصناعي الحديث واكبه تحطيم للجماعة لكي يبنى على انقاضها المجتمع اللامتجانس الحديث وبذلك حطمت العلاقات الصناعية المتعارفات المشتركة والثقافة المتعارف عليها وانتقل التركيز على الشخصية .

هذا التحول في العلاقات السلوكية انما سار وفق الاسلوب الثاني المفترض وهو اسلوب (شخصية – ثقافة) ومن خصائص الاسلوب الجديد انه يتيح حركة اعظم للشخصية على حساب تحطيم الحاجز الثقافي (التقليدي) دون وعي بحقيقة سلوكيه هي ان المعادلة السلوكية يجب ان تشتمل على ثلاثة اطراف هي الثقافة والبناء الاجتماعي والشخصية فقد فرضت الشخصية ثقلها واستطاعت ان تبنى لها نسقا اجتماعياخاصاًبها لايعتمد على ايةمتعارفةثقافيةثم انتقلت الشخصية الجديدة بعد ان هدمت المتعارفات التقليدية وبنت لنفسها نسقا اجتماعيا جديدا

كان على صورتها الى ان تكوّن لها متعارفات جديدة منها ما كتب عنه ثورستان فبلن في كتابه (نظرية الطبقة المترفة) اذ سماه بالاستهلاك المظهرى Conspicuous Consumption والذى فلسفه و.و وستوفصاغه بشكل مرحلة اطلق عليها اسم الاستهلاك الشعبي العالى The Age of high Mass Consumption(٩)

ومثل هذه الصياغات لايمكن ان ترقى الى مستوى المتعارفات الثقافية لانها آتية من الفرد والشخصية في الوقت الذى يفترض فيه ان تنزل المتعارفة من الثقافة لاان تصعد من الشخصية بالاضافة الى ان المتعارفة لايمكن ان تكون مشتركة اذا صعدت من الشخصية نفسها وأرادت مثل هذه الشخصية فرض المتعارفة كمفهوم مشترك على الجماعة .

وهذا مايوضح الاختيار الصعب الامريكي الذى اشار اليه جنرمردل في كتابه اذ ان الشخصية الامريكية تريد ان تستغل الانسان الملون في سبيل كسب مادى في الوقت الذى تريد منه ان يعيش تحت سقف ثقافي واحد نسج بمفاهيم صادرة عن نفس الشخصية التي تريد ان تحوله الى جهاز انتاجي يحقق لها فائضاً في العمل والقيمة (٤٠) .

هذه التحليلات للنماذج السلوكية الانسانية الثلاثة انما تعكس حقيقة مهمة هي ان محاولة فهم العلاقات الثقافية ــ الاجتماعية ــ السلوكية في مجتمع من المجتمعات لاتتم عن طريق دراسة المجتمع الابسط منه ظنا من ان هذا المحتمع هو اسهل تناولا ولم يصل فيه التعقيد الى الدرجة التي وصلت فيها المجتمعات الصناعية الى الطريق المسدود حيث التداخل المعقد بين جوانب حياتها المختلفة الامر الذى يصعب معه فرز مكوناتها السلوكية المركبة وبالتالي يحول دون دراستها اذ ان النظام المالي المعقد في مجتمع اللور لايقل في ضوابطه وموجهاته ومايحكمه من فواصل مايماثله من النظم المالية والمصرفية في بلدان العالم الصناعي

---

(٤٠) BINDER, L., The Ideological Revolution In The Middle East, pp. 221-222

(٤١) STEWART, p. 234.

كما ان التوجه للحرب وعملية التجييش التي تمارسها قبيلة السيوكس الهندية لاتقل اتقاناً عما يسمى في الوقت الحاضر باسم التوعية والتثقيف ورفع الروح المعنوية وهي خصائص اعتبرها رجال الحرب ابتداءا بها نيبال ومرورا بنابليون وانتهاء بجياب اكثر اهمية من معدات القتال نفسها لانها ترفع الروح القتالية في الوقت الذى تعمل فيه على رفع المقدرة القتالية وهما خاصتان اذا اضيف اليهما مضاء الاسلحة المستخدمة واستيعاب التخطيط القتالي فنا وممارسة امكن كسب المعركة مع ملاحظة فارق واحد بين حرب الجماعة وجماعة الحرب اذ ان القبائل الهنـدية كانت تمارس حرب الجماعة عن طريق وضـع انتصار الجماعة واستمرارهـا في كفة واخفاق الجماعة وضياعها في كفة ثانية مما يعني ان حرب القبيلة هي حرب الجماعة وليس حرب جماعة من وسط هذه الجماعة هي جماعة الحرب (٤١).

نظرة شمولية الى معادلة الثقافة والبناء الاجتماعي والشخصية :

ان المعادلة التي تربط بين الثقافة والبناء الاجتماعي والشخصية انما يجب ان ينظر اليها من خلال كون المتعارفات الثقافية او المفاهيم المشتركة متفقات يلزم بها افراد التكوين الاجتماعي . وهذا يعنى ان البناء الاجتماعي انما يقوم بنقل هذه المتعارفات من صعيدها الثقافي وتوزيعها من خلال شبكات التنظيم الاجتماعي التي تحكم عن طريق المعايير الاجتماعية Norms لكي يؤمن وصولها الى الطرف الثالث في العملية وهي الشخصية وهذا واضح في جماعات اللور التي درستها دوبوا وفي الثقافات البدائية الثلاث التي درستها روث بندكت وكذلك في دراسة مالينوفسكى عن التروبرياند إذ عكست البناءات الاجتماعية في مثل هذه المجتمعات بل وحتى في المجتمع الحديث في دراسة لند (الميد لتاون) انما يكون عمل البناء الاجتماعي في واقعه هو تحويل القيمة الثقافية Cultural value الى معيار اجتماعي Social Norm وهذه العملية لاتتم الا

---

(٤١) SWARTZ, and Jondan, pp. 511-519

من خلال شبكة التنظيمات الاجتماعية التي تجمع بين النظم الاجتماعية المختلفة والمؤسسات الاجتماعية ومايتصل بها من تراتيب اجتماعية وماتنتهي اليه من نسق اجتماعي في الوقت الذى تظل فية الثقافة محتفظة بمأثوراتها الشعبية وأعرافها اما البناء الأجتماعي فانه يحرك ماتواضع عليه المجتمع من معايير او كما يسميها دور كايم بالتصورات الجمعية والتي لاتخرج عن كونها تصورات المجموع للقيم التي طرحتها الثقافة (٤٢).

هذا هو القسم الاول في المعادلة والذى يبدأ من الثقافة التي تتبلور بشكل قيمه والتي تتحول عن طريق البناء الاجتماعي الى معيار هذا المعيار لابد وان ينتقل الى الافراد انفسهم. لكي يتأصل في سلوكهم ويصبح جزءا من ردود افعالهم.

اما القسم الثاني من المعادلة فانه يتأثر الى حد بعيد بالمحفزات الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بالفرد ومايمكن ان يواجه به المواقف الجديدة التي يتوجب عليه تعلمها سواء عن طريق جماعته الاولية او من خلال المؤسسة المدرسية وهذه العملية في واقعها هي ترجمة للقيمة من خلال المعيار لكى تصبح سلوكا مما يعنى تحولها الى عادات وتقاليد (٤٣).

وللوضوح فان مثل هذه العادات والتقاليد وماتتضمنه من قيم ومعايير والتي تكون بمجموعها النمط السلوكي السائد في المجتمع الذى يسمى بالشخصية مثل هذا التكوين الذي يجمع بين الثقافة ممثلة في قيمها والمجتمع ممثلا في معاييره والفرد الممثل في سلوكياته انما يؤثر في الثقافة وقيمها ثانية من خلال المعايير الاجتماعية التي اوصلت القيم اليه اذ انه يقوم حتى بتحوير بعض المعايير لكى تتفق ومايريد نقله من سلوكيات جديدة على صعيد المتعارفات الثقافية وفي هذه الحالة تحاول الثقافة وتحت ضغط ماوصل اليها من تغييرات في الانماط السلوكية ان تبتعد عن التأثير النفسى والمتمثل في الفرد والتأثير الاجتماعي المتمثل في البناء الاجتماعي لذا فهي ترتبط بالتاريخ مكونه مانسميه بالتراث Tradition وهذا

---

(٤٢) FIRTH, R., Humantypes, pp. 62–82

(٤٣) Ibid., pp. 83–105

الترابط له فعاليته لانه يتخذ اشكالا متميزة منها الجانب الديني والفني والاخلاقي والفكري وبذلك تكون هذه البناءات الثقافية العالية بعيدة عن تناول الفـــرد والمجتمع (٤٤).

وبذلك تصل الثقافة الى مرحلة الموضوعية وتصبح بالفعل قوة مؤثرة وليست متأثرة وفي هذا تتساوى الثقافات البدائية والصناعية القديمة منها والحديثة والفرق الرئيسى بين هذه الثقافات ليس في قابلية الثقافة على موضعه نفسها وانما . في قدرتها على النزول بهذه الموضوعية الى البناء الاجتماعي والضغط بشكل اشد على السلوك الفردى ويحدث هذا ما عن طريق الاعراف Mores كما في الثقافات غير الصناعية او عن طريق القوانين Laws كما في الثقافات الصناعية وبذلك تكون الثقافة قد ضمنت لنفسها الاستمرار في وجه التغيرات في السلوك الفردى (الشخصية) اذ قد يلجأ الى وضع قيود كما في المجتمعات البدائيـة او تكوين ايدلوجيات كما في المجتمعات الصناعية او ماقبل الصناعية وفي الحالتين (القيود والايديولوجيات) فان التحرك الثقافي يكون واحدافي عملياته مختلفا في النتائج اذ ان القيود في الثقافات البدائية ليست الا تأصيل القيم في الاعراف اما الايديولوجيات فلا تعدو كونها استدخالا للقيم الثقافية في القوانين والمقصود من هذا كله هو فرض النمطية على السلوك الفردى والتحكم في مكونات الشخصية، ولكن يبقى جانب له اهميته هو أن التحكم مهما كان قويا وفعالا في الشخصية الا انه يضعف امام الجانب العملى او الوظيفي للشخصية وهذا هو المحرك الرئيسى للتغيير الاجتماعي (٤٥).

الدوافع والغايات المحركة للسلوك الانساني :

ان ترجمة المتعارفات الثقافية الى سلوك فاعل من خلال شبكة التنظيـــم الاجتماعي عملية معقدة تضم العديد من العمليات الاصغر منها تبدأ بالدافع

---

(٤٤) STEWART, pp. 343-366.

(٤٥) Ibid., pp 444-463.

Drive وتنتهي با غاية goal والطريق بينهما طويل ومعقد لذا فمن الافضل التعرف على الدوافع المألوفة في الثقافات المختلفة من جهة وربطها بالغايات التي التي تتوخاها هذه الثقافات من جهة اخرى . واهم هذه الدوافع والغايات يمكن يمكن الاتيان على تسميتها مع ملاحظة حقيقة اساسية هي شمولية الدوافع بصرف النظر عن الثقافات التي تمارس من خلالها كما ان الغايات هي الاخرى لها صفة الشمولية الا ان الاختلاف بين ثقافة واخرى او بين المجموعات الثقافية في العالم هو في سبيل او سبل الوصول الى الغايات : —

الدوافع	الوسط التفاعلي	الغايات
الجنس	الجنس مع الاعتبار	الزواج
الاعتبار		
الاطمئنان	الاطمئنان مع احترام الذات	بناء المركز الاجتماعي
احترام الذات		
الاستقلالية	الاستقلالية مع الاعتداء	تكوين الثروة
الاعتداء		الوصول الى السلطة

وهذه الحقول يمكن تمييزها بكون حقل الدوافع يتعلق بالفرد نفسه وهو حقل تغلب عليه الناحية السلوكية ببعدها الفردى (النفسى) .

اذ يتميز الفرد الانسان عن غيره من التكوينات البيولوجية أن بناءه الجسمي عالي المرونة وهذا مايساعده على ان يشبع دوافعه بسبل مختلفة اولا مع امكانية الاختيار بين هذه السبل بما يناسب الغايات ثانياً (٤٦) .

الا ان مثل هذه المرونة في البناء الجسمى والتي يترتب عليها مرونة في قابلية الافراد على اشباعاتهم للدوافع المختلفة لايمكن ان تترك دون (ترويض) وهذا يتم عن طريقة التنشئة الاجتماعية اذ توظف هذه العملية لتحقيق انتماء الفرد

---

(٤٦) FIRTH, pp. 38-62

لثقافة معينة حيث يكون القصد منهاتعويد الفرد على الحالات التي يمكن فيها ان يستخدم كل مالديه من مرونة في البناء الجسمى في سبيل تحقيق غايات معينة تراها الثقافة ضرورية لاستمرار التركيبة الاحتماعية السائدة في الوقت الذى يحد من هذه المرونة او قد تعطل كما في حالات الانقطاع عن الطعام او الجنس او النوم وهذه الممارسة الثقافية على الرغم من خطورة مايتمخض عنها من ردود افعال حديه او سلبية تعتبرها الثقافة اساسية لاختبار فاعليتها في السيطرة على السلوك الفردى ويبني على مثل هذه الممارسات الثقافية ثوابا وعقابات هي جزء اساس مما يسمى بالضبط الاجتماعي الذى يمارسه البناء الاجتماعي بتفويض من الثقافة نفسها (٤٧) .

اما الحقل الثاني (الوسط التفاعلي) فانه حقل اجتماعي اذ أن الدوافع وهي غالبا ماتكون بيولوجية التحريك او بايونفسية لاتستطيع أن ترتبط مباشرة بالغايات اذ يصعب تصور الصلة بين الجنس والزواج بدون دخول دافع الاعتبار حيث يمكن من خلال هذا الدمج بين الجنس والاعتبار توجيه الدافع الجنسي نحو غاية معينة لان مفهوم الاعتبار هو جعل الجنس وسيلة وبالتالي يمكن ترويضه والسيطرة عليه وبالمثل يحدث بالنسبة للاطمئنان فانه دافع له خطورته قد يشبع على حساب الاخرين الا ان ربط الاطمئنان .باحترام الذات يروض هذا الدافع ويوجهه نحو الغاية المطلوبة .

اما الاستقلالية والتي تعنى اعتماد الانسان على نفسه وهي نزعة ابتعادية قد تؤدى الى انعزال الفرد وتقوقعه فان دمجها بالاعتداء والذى يمثل ابرز مظاهر الخروج من الذات اذ يمثل الاعتداء الطرف البعيد للخط الذى تحتل طرفه الاخر الاستقلالية فان الدمج سوف يروض الاستقلالية والانفرادية ويوجهها صوب تكوين الثروة او الوصول الى الساطة .

---

(٤٧) MEKEE, pp. 649-660.

وبذلك يعمل الحقل الثاني والذي يمكن تسميته بشبكة التنظيمات الاجتماعية على ترويض الدوافع من ناحية ودمجها من ناحية ثانية وربطها بالغايات من ناحية ثالثة .

بقى حقل الغايات وهذا حقل ثقافي لان الثقافة بما لديها من ساطة على السلوك وارتباطات بالتراث هي التي تحدد مدى المرونة واللامرونة في الاستجابات الفردية حيث تصل اليها عن طريق البناء الاجتماعي وبذلك تختار الثقافة ماتفترض ان يكون افضل الغايات ثم تحرك البناء الاجتماعي لكي يستقبل تأثيرات الدوافع مع الايعاز اليه بدمجها لكي تتناسب والغايات المتعارف عليها ثقافيا ولكن العملية لاتكون بهذه السهولة اذ انها اكثر تعقيداً وعلى الاخص عندما ينظر اليها من زاوية السلوك الفردى فليس هناك حدود للمرونة الفردية والحد من هذه المرونة وان كان الغرض منها تحويل فائض المرونة الى بناء اجتماعي وثقافة الا ان الدوافع تبقى طرفاً ضاغطاً والمجتمع وسطاً مساوما والثقافة جانباً متسلطاً .

وهذا التحليل لايخلو من دَعْم علمي ونفسي له فقد اكد فرويد في نظريته عن التحليل النفسي ان المرونة اللامحدودة قد تقود الى التدمير لذا فقد توصل الى استنتاج هو ان الحد من هذه المرونة أمر ضرورى لكي يصار الى ترويضها وبالتالي بناء حضارة لبنى الانسان .

لذا فان فرويد يعتقد ومن خلال اطروحات التحليل النفسي ان الكبت ضرورى ومرحلة اساسية لحدوث التصعيد وبذلك يكون البحث عن الاضطراب السلوكي ليس في مظاهرة وانما في كوامنه او ماسماه فرويد باللاشعور وشخصية الفرد في واقعها يمكن ان تفهم في ضوء الطريقة التي تمت فيها عملية الكبت نفسها من ناحية والانتقال من الكبت الى التصعيد وصولا الى التوازن بينهمامن ناحية ثانيـــة .

والذى يريد قوله فرويد هو ان الدوافع التي تجد لها صدى نشطا في المرونة التركيبية للانسان لابد من ان تدمج وبالتالي تروض ثم توجه لخدمة

الغايات الثقافية التي تعارف عليها المجتمع وبذلك يولد الانسان الحضارى اى الذي له القابلية على الكبت والتصعيد ثم الموازنة وهذا ماأراده علماء الثقافة بتأكيدهم على ان المرونة الجسيمة يجب ان تحدد وتروض وينتفع بها (٤٨) .

ولكن الجانب الذى ترك سواء كان من قبل علماء النفس او الثقافة هو لماذا تتحول الدوافع الى اندفاعات ؟ ثم هل يمكن ان يعوض ماهو جسمى ونفسى بما هو اجتماعي وثقافي ، مثل هذه التساؤلات ترتبط دوما بالفرز والتمييز بين عوامل التركيد والتحريك لذا فان افضل الاجوبة يمكن ان يتوصل اليها من خلال توظيف المعرفة في مجالات جديدة مثالها ان يفهم التغيير في ضوء علم النفس عن طريقة علم الاجتماع اى Psychology of Social Change اذ المتفق عليه في الدراسات الاجتماعية هو (تفصيل) الشخصية لكي تتفق مع « الخامة والنموذج » الثقافي السائد ولكن مايحدث في عالم اليوم وفي المجتمعات على اختلاف نموها وصناعيتها هو رفض وتحد لمثل هذه التسلطية الثقافية للخروج من شرنقة التفصيل المفروضة الى حد مطالبة تفصيل الثقافة بشكل يتفق « والخامة والنموذج » الذى تضعه الشخصية (٤٩) .

---

(٤٨) FIRTH, pp. 122-148.

(٤٩) Ibid., pp. 148-167

مراجـــع عامـــة

ARLOTTO, Anthony 1972 Introduction to Historical Linguistics. Boston: Houghton Mifflin.

BORDES, F., 1968 the old stone Age. l. E. Anderson, Trans. N.Y: World Univensity Library.

BRODRIEK, A. H. 1971 MAN and His Ancestors 2nd edition. London: Hutchinson.

CAMPBELL, B. G. 1966 Human Evolution. Chicago: Aldine

COHEN, B. 1955 The Changing Status of Depressed Caste. In Village India M. Marriott, Ed. Chicago: University of Chicago press.

DOBZHANSKY, T.V. 1962 Mankind Evolving. Newhaven: yale.

Du Bois, CORA 1960 The people of A lor. 2 vols. N. Y: Torehbooks.

Fox. Robin 1967 Kinship and Marriage : Anthropological perspective. Baltimore: penguin.

GLUCK, M. 1956 The Frailty in Authonity. In custom And Confliet in Africa. M. Gluekman, Ed. Oxford: Blaekwell.

GOODALL, J. 1971 In The Shadow of MAN. Boston: Hougton Mifflin.

HARRIS, M. 1971 Culture, MAN, and Nature: An Introduction to General Anthropology. N. Y: Thomas Y. Crowell .